للمكاثرة حتى حللتم القبور. ثم قال كلا لو تعلمون علم اليقين، أى لشغلكم العمل الصالح للآخرة عن اللعب واللهو الذى هو مقتضى الشك إذ هو ضد اليقين، فاشتغلتم بالآخرة عن التكاثر من الدنيا، كما شغلكم التكاثر باللهو واللعب لعدم علم اليقين كما قال أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنّا موقنون، بعد أن قال بل هم فى شك يلعبون، ثم توعدهم على ذلك مرتين وتهدّدهم بالسؤال عن النعيم الذى شغلهم وهو التكاثر فى فضول العاجل، وقيل هو الجمع والمنع.

فاعلم أنّ الذى قَطَعَ العباد عن التوبة وعرج بالتائبين عن الاستقامة ثلاثة أشياء :الكسب والإنفاق والجمع. وهذه الأسباب متعلقة بالخَلْق، وموجودة بوجودهم ومفقودة بالانفراد عنهم، فمن زهد فى هذه الثلاثة فقد زهد فى الخَلْق، ومن رغب فى الخلق فقد رغب فى هذه الثلاث. وقال الثورى من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا. وقد قال بعض هذه الطائفة من الصالحين قلتُ لبعض الأبدال المنقطعين عن الخَلْقْ كيف الطريق إلى التحقيق، وقال مرة قلت له دلّنى على عمل أعمله أجد فيه قلبى مع الله تعالى فى كل وقت مع الدوام، فقال لا تنظر إلى الخَلْق فإنّ النظر إليهم ظُلمة. قلت لابد لى من ذلك. قال فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قَسوة ، قلت لا بدلى من ذلك. قال فلا تعاملهم فإن معاملتهم وَحشة. قلت أنا بين أظْهُرهم لا بد من معاملتهم. قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هَلَكة. قلت هذه العِلّة؟ فقال ياهذا أتنظر إلى الغافلين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطّالين، وتريد أن تجد قلبك مع الله عز وجل على الدوام؟ هذا ما لا يكون.

وقد جاء فى فضل العزلة والانفراد ، وفى فضل الصمت، وفى جميع مانكرناه من الجوع والسهر ومن مكابدة الليل، ، مايَكْثُر جمعه، وفيما نبهنا عليه وأشرنا إليه، بلاغٌ وغُنية لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، ولمن أريد بالمعاملة والمتاجرة، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

الفصل الثامن والعشرون

فيه كتاب مراقبة المقربين ومقامات الموقنين

العبد إذا قوى يقينه علم علم يقين أن أوقاته هذه التى وَكّل تربيته إليها، وجعل سبب نمائه وحياته منها، وهى مكررة عليه فى البرزخ، ومردودة إليه يوم القيامة، ومُعادة عليه فى الجنة، إنْ دخلها ليس يُجَازَى هناك إلاّ بمقدار ما أعْطَى من المعاملة ههنا ، ولا يُعطَى ثَم إلاّ بقدر ما

وُفّق هـهنا. ولا يُسئل إلا عن أوقاته، ولا يُحاسب إلاّ بساعاته، ولا يُجازَى إلاّ عليها، ولا تُردّ عليه أوقات غيره، كما لا يعاد هو فى صورة غيره، ولا يُعطَى جزاء سواه، كما لم يعامل هـهنا معاملة سواه، ولكن اللّه يُبدئ ويُعيد، فمن ذلك قوله تعالى كما بدأكم تعودون. وقال تعالى أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّر وا آياته مَنْ تدبّره، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض، أم نجعل المتقين كالفجّار، أى تدْبروا آياته هل ترون جزاء هؤلاء لوصف هؤلاء ، أم هل تجدون وصف هؤلاء له جزاء أو لا ؟ ومثله قوله تعالى ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب، فنفى أمانيهم بليس، وأثبتّ حكمه بلكن وهى مضمرة فى الكلام، والمعنى لكن من يعمل سوأ يُجْزَ به، وفسّره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال المؤمن يُجزَى بسيئته فى الدنيا من المصائب والجوع والعُرْى، والمنافق تبقى ذنوبه عليه حتى يُوفّى يوم القيامة.

وقال بعض العلماء كلما قلّ العقل كَثُرت الأمانى. ومنْ ظنّ أنه يدخل الجنة بغير عمل فهو متمن، ومن قال أدخلُها بعمل فهو مُتَعَن. وقال بعضهم الأمانى تُنقص العقل. وفى الخبر ليس الإيمان بالتحلّى ولا بالتمنّى ولكن ماوَقَر فى القلب وصَدّقه العمل. ومن هذا قول اللّه عز وجل هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. وقال فى ضده من عمل سيئة فلا يُجزَى إلا مثلها. وقال فى معناه أم حسبتم أن تُتْركوا ولمّا يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم، وكذلك قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مَثَلُ الذين خَلَوا من قبلكم. وقال فى مثله أمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيآت أنْ نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم قال سَاء مايحكمون، فأبطل حسبانهم وأدحض حكمهم، ثم أحكم ماعنده بقوله سواءٌ مَحياهم ومماتهم، أى هم كما كانوا فى المحيا محسنين يعملون الصالحات كانت لهم الحُسنى فى الممات، وكما كانوا فى المحيا مفسدين يعملون السيآت كانت لهم السوأى والمكروهات. وقيل كانت هذه الآية مبكاةً للعابدين لأنها مُحكمة غير متشابهة وكذلك جميع ماذكرناه من نظائرها هو من المحكم الذى هو أم الكتاب غير منسوخ ولا متشابه. وهذه الآى من عزائم القرآن، وهو من أحسن ما أُنزل علينا من ربنا الذى أمر اللّه سبحانه وتعالى باتبّاعه، ووصف أهل الهدى وأولى الألباب باستماعه، فى قوله تعالى الذين يستمعون القول فيتبّعون أحسنه، قيل عزائمه ووعيده. وقد قيل فى قوله تعالى وبدا لهم من اللّه مالم يكونوا يحتسبون، قيل الرجاء الخائب بالاغترار والظن الكاذب، وقيل عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنات فوجدوها عند المحاسبة سيآت، والصحيح ماصحّ بعد الحساب،

والحق مائقُل عند الميزان، كما قال تعالى والوزن يومئذ الحق، قيل العلم والعمل. كما قال تعالى ولقد جئناهم بكتاب فصلّناه على علم، ثم قال فلَنَقصنّ عليهم بعلم، ثم قال تعالى وبدا لهم سيآت ماكسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، قيل كانوا يقدّمون الذنب ويؤخرون التوبة ويسوّفون بالمغفرة. وكانت هذه الآية محزنة للخائفين ومخافة للعارفين. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أعد النار للكافرين ثم أمر المؤمنين باتقائها، ثم وصف الكافرين فيها وخوّف عباده بها، فقال تعالى واتقوا النار التى أُعدت للكافرين . وقال سبحانه لهم من فوقهم ظُلَل من النار، ومن تحتهم ظلل ، ذلك يُخَوّف الله به عباده ياعباد فاتقون.

ويقال إن العبد يستحق النار بأول معصية عصى مولاه بها بعد المعرفة، ثم هو بعد ذلك فى المشيئة، وأنّ فى كل عبد خَصلَة كريهة يخاف عليه منها. وكان عبد الواحد بن زيد يقول ماصحّ خوف خائف قط ظن أنه لا يدخل النار، وماصدق خوف من ظن أنه يدخل النار، فظن أنه يخرج منها، أى أن حقيقة الخوف خشية دخول النار ثم الخلود فيها. وقد روينا مثل ذلك عن الحسن وقد ذُكِر له الرجل الذى يخرج من النار بعد ألف عام فبكى، ثم قال يا ليتنى مثل ذلك الرجل . ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد أن يعلم كيف منزلته من الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله فى قلبه، فإنّ الله يُنْزِل العبد منه بحسب ما أنْزَله من نفسه.

المقام الثانى من المراقبة

هو أن يعلم العبد يقينا أن لكل عمل صالح نعيما فى الجنة وروحا فى البرزخ، ولكل عمل حسن ومعرفة خالصة مقاما فى الجنة، وقد قُسِم جزءٌ هناك لعَطاء معاملة ههنا، وأن لكل عمل سئ وجهل قبيح عذابا فى الآخرة وكَرْباً فى البرزخ ومقاماً من النار ، قد قُسِم جزءٌ هناك لعمل ههنا، ثم قد أخفى الله ذلك الجزء من الخير والشر وأظهر أعمالهما للحكمين، وأبان لهما طريقين يجريان إلى دارين حكمة منه، ثم قدّم المعاملات من المعنيين وأخّر المثوبات من النوعين، إحكاماً منه للأفعال، واستسعاءً للعبد بالأعمال، ابتلاءً منه لتُجزىَ كل نفس بما تسعى، مِنةً منه ورحمة، وقُدرةً منه ومحبة، لا يُسئل عما يفعل لأنه ملكٌ قهار، عزيزٌ جبار، وهم يسئلون لأنهم عبيد مقهورون، وذلّلٌ مجبورون. ولا تُضرب لهم الأمثال لأنه قد جاوز الاحتجاج والاعتدال، ولا يُسوّى بالعبيد، لأنه قد فات التقدير والتحديد، فله الحُجة البالغة والقدرة النافذة فى كل شئ ، ليس كمثله شئ فى جميع ذلك كله. وقد أحكم الله تعالى

ماذكرناه فى توحيد نفسه بالمشيئة والأفعال، ونهيه عن الشرك به وضرْب الأمثال، وعَجَب ممن يسوّى بينه وبين خلْقه فى الأحكام، وجعل ذلك جحود النعمة وشرْكا فى مُلكه، وأخبر به عن المشركين وإضلالهم أتباعَهم بعد ضلالِهم المبين، وإضلالِهم بتسويتهم بينه وبين عباده فى الأحكام، فى قوله تعالى قالوا وهم فيها يختصمون تاللّه إنْ كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين، وما أضلّنا إلاّ المجرمون، قيل أُنزلت فى القَدَرية لأنهم أضافوا الحول والقوّة فى الشرّ إلى الخلْق فسوُّوا بينهم وبين الخالق. وقد قال الله تعالى واللّه خلقكم وماتعملون، فأضاف الأعمال إلى أنه خلقها كخلقه إياهم، فهم المجرمون الذين أُنزلت فيهم هذه الآية التى ذكر فيها القُدرية، فوُصِفوا بإنكارهم فى قوله تعالى إن المجرمين فى ضلال وسُعُر ، يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مسّ سَقَر، إنّا كل شئ خلقناه بقَدَر، هم المجرمون الذين أضلوا أتباعهم، وهم الغاوون الذين كُبكوا فى النار مع أشياعهم.

وقد أحكم اللّه تعالى تفصيل ماذكرناه آنفا فى خمس آيات مُحكمات تنظم جُمْلَ معانى ماذكرناه، وتركنا شرح ذلك وبسطه خشية الإطالة لأنّا لم نقصد الاحتجاج فى الاستدلال. من ذلك قوله تعالى واللّه فضّل بعضكم على بعض فى الرزق، يعنى فضّل الموالى على العبيد، فما الذين فُضِّلوا يعنى الموالى، برادّى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء، أفبنعمة اللّه يجحدون، والآية الثانية قوله تعالى ضربَ لكم مثلاً من أنفسكم، هل لكم مما ملكتْ أيمانكم مِنْ شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء، أى فكذلك أنا لا شريك لى من عبيدى، فلا تجعلوا لى مالم أجعل أحداً، لا خلقى ولا عبيدى، عليكم، إذ لم أسوِ بينكم وبين عبيدكم، فلا تشركوا عبيدى فى حُكمى. والثالثة قوله تعالى ضَرَبَ اللّه مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شئ، يعنى الإنفاق، ومَنْ رزقناه منا رزقا حسنا فهو يُنفق منه، فجعلهما على وصفين، أحدهما بخيل لم يُقْدِره على الإنفاق، ثُم ذَمّ بالبُخل والعجز وهو الذى أعجزه ومنعه، وجعل الآخر جواداً إذ أقدره وأعطاه الإنفاق، ثم مدحه بالجود. وقال فى الآية الرابعة وضرب اللّه مثلا رجلين، أحدهما أبكم لا يقدر على شئ هو الحكمة والعلم، ثم قال هل يستوى هو ومَنْ يأمر بالعدل، فجعل له عبدين أحدهما سفيه جاهل أبكم عن الحكمة، ولم يُقدره على علم، ولم يُعطه استقامة، ثم ذمّه بوصفه ومقَتَه لمنعه، وجعل الآخر آمر بالعدل عن أمره، مستقيما على صراطه المستقيم الذى هو عليه وهو أقامه، كما قال هذا صراط علىّ مستقيم. فهل يسلك أحد طريقه إلاّ به، وهل يجوز عبد على سبيله إلا بحوْله؟ ثم مدحه بإعطائه إياه ووصفه بوصفه، ثم علم سبحانه

أن للعقل فى هذا تشبيها وتمثيلا بخلقه، وتجويزا وتظليما من خالقه على قياس العقول، أن من فعل بعبدين له مِثْل هذا ثم مدح أحدهما وهو أعطاه وأقدره، وذَم الآخر وهو الذى منعه وأعجزه، أنه قد ظلمه، فحسم ذلك عز وجل بنهيه، وأحكم النهى عن التمثيل به فى الآية الخامسة الفاصلة القاضية التى نهانا فيها أن نضرب له بنا الأمثال مِثْل ما أجرَىَ طينا من الأفعال، فقال سبحانه وتعالى فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، فَوكَّد ذلك بتحقيق علمه وغاية جهلنا، ثم أيّد هذا بقوله سبحانه لا يُسئل عما يَفعل وهم يسئلون، فسلّم الراسخون فى العلم الأحكام كلها للحاكم فسلِمُوا من عذابه، وآمن المؤمنون بجميع الأقدار أنها عدل وحكمة من حاكم عادل حكيم، فأمِنُوا من عقابه، لأنهم آمنوا بالمتشابه وأعطاهم بفضله من فضله جزيل ثوابه، فهلك الزائغون بالأقاويل، تتبعاً للشبهات وابتغاءً للتأويل، فوقعوا فى الضلال وهلكوا غداً فى المآل.

وقال بعض العارفين الخَلْق أهون من أنْ يُعصوه عز وَجل بمالم يُرِد، والله أعز من أن يُرضيه إلاّ من أحب، لكنه غَضِب على قوم فى العَدم، فلما أظهرهم، استعملهم بأعمال أهل الغضب ليحلهم دار الغضب، ورضى عن قوم فى القدم، فلما أظهرهم، استعملهم بأعمال أهل الرضا ليحلهم دار الرضا. وقال بعض أهل المعرفة أظهر الخلق فى العدم وأوجدهم اقتدارا، ثم أظهر لهم أعمالهم وخيّرهم الأعمال منه اختيارا، فاختار كل عبد منهم عملا بعينه ثم طوى الأعمال فيهم وطواهم فى الغيْب ، فلما أظهرهم الآن فى الوجود حجبهم بالعقول، وأجرى كل عبد منهم اختياره لنفسه، فبذلك وقعت الحُجّة عليهم إذ أكْشَفَ لهم غداً ماحَجَبه عنهم اليوم.

وقد حدثونا عن **رابعة العدوية** رحمها الله تعالى قالت سبّحت ذات ليلة تسبيحات من السحر، ثم نمت فرأيت شجرة خضرة نضرة، لاتوصف عظما وحسنا، وإذا عليها ثلاثة أنواع من الثمر لا أعرفه من ثمار الدنيا، كثدى الأبكار، ثمرة بيضاء، وثمرة حمراء، وثمرة صفراء، فهن يلمعن كالأقمار والشموس فى خلال خُضرة الشجر. قالت فاستحسنتُها فقلت لمن هذه، فقال لى قائل هذه لك بتسبيحاتك آنفا، قالت فجعلت أطوف حولها فإذا تحتها ثمرة منتشرة على الأرض فى لون الذهب، فقلت لو كانت هذه الثمرة مع هذه الثمار على هذه الشجرة لكان أحسن، فقال لى الشخص قد كانت هناك، إلا أنك حين سبّحت تفكّرت هل اختمر العجين أم لا، فانتثرت هذه الثمرة، فهذه عبرة لأولى الأبصار، ومواعظ لأهل التقوى والأذكار.

المقام الثالث من المراقبة

رُوى أن كعب الأحبار قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، لو لقيت الله تعالى بعمل سبعين نبيا لخشيت أنك لاتنجو من هوْل ذلك اليوم. وفى الحديث معالجة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف، وأن ألَم شعرة من الموت لو وُضِع على جميع الخلائق لماتوا، وأنّ بين الخلائق وبين الموت وبين دخول الجنة مائة ألف هوْل، كل هوْل منها يزيد على ألم الموت مائة ألف ضعف، لاينجو العبد من كل هول منها إلا برحمة فيحتاج العبد إلى مائة ألف رحمة تنجيه من تلك الأهوال، يكون ذلك العدد من الرحمة مقسوما على مائة ألف حسنة من حسناته فى الدنيا، يكون مكانًا لظهور الرحمة وطريقاً لعطائها غداً، حكمةً من الحكيم وقسماً مدبّراً من الرحيم، لأن الصالحات طرق الجزاء، والحسنات كلُها عن الرحمة الواحدة التى سبقت له بها النجاة ثم سقطت فى طرقات الأعمال أماكن الثواب، فيُعطى ذلك ههنا اليوم وهو العطاء الأول بحُسن توفيقه ولُطف عنايته، ويعطى الجزاء هناك غدا بفضل رحمته وتمام نعمته، ذلك تقدير العزيز العليم، كما قال تعالى هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان، قيل فى الخبر ماجزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة. وقال بعض العلماء وليس لقول لا إله إلا الله إلاّ النظر لوجه الله تعالى، والجنة جزاء الأعمال. ألَمْ تَرَ أنهُ لو حُرِمَ التوحيد اليوم لحُرِمَ الجنة، ولو مُنِعَ الإسلام اليوم لم يَغفر الله له أبدا. كما قال عز وجل أنه من يشرك فقد حرّم الله عليه الجنة، وقال إن الذين كفروا وصُدوا عن سبيل الله، ثم ماتوا وهم كفار، فلن يَغفر الله لهم، فهذا مما لاحيلة فيه ولا سبيل إليه، وقد قال هو أهل التقوى وأهل المغفرة، قيل هو أهل أن يعطى التقوى، ومن أعطاه التقوى فهو أهلٌ أن يعطيه المغفرة، كقوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها. وقال واتقوا الله لعلكم تُرحمون، وقال إن رحمة الله قريب من المحسنين. وقال سبحانه على الذى أحسن سنزيد المحسنين، إلى قوله ماعلى المحسنين من سبيل، وقال تعالى ومن يقترف حسنة نُزد له فيها حُسنا، فمن كانت أعماله الحسنات فهو من المحسنين، ومن كانت أعماله سيئة فهو من المسيئين، فاشتقاق الحَسَنَة من الحُسن، وجزاؤها الحسنى وهى الجنة، واشتقاق السيئة من السوء، وجزاؤها السوأى وهى النار، وقد سبق خلقهما قبل خلق الخلائق، وفرغ من نصيب العباد من الجنة والنار.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان، فقال أن تعبد الله كأنك تراه، فهذا

أول المراقبة لأنها غير المشاهدة، ترى الرقيب ثم تراقب. وقد خصّ الله تعالى بالطيبات من الأعمال الطيبين من العمال، وابتلى بالخبيثات من الأعمال الخبيثين من العمال، وفرغ من ذلك بعلمه، وقَدَره بحُكمه، وأخفاه بلُطفه، فقال تعالى الخبيثات للخبيثين، قيل الخبيثات من الأفعال والأقوال للخبيثين من الرجال، وقال الطيبات للطيبين، وقيل الطيبات من الأعمال والمقال للطيبين من الرجال. ثم أخبر بحُسن خاتمة أوليائه وسوء خاتمة أعدائه، فقال تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبّين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون. قيل طابت حياتهم فطابت وفاتهم، وطابت أعمالهم فطاب الموت لهم. وقال فى وصف الظالمين الذين تتوفّاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا، أظلمت حياتهم وأعمالهم فأظلمت قبورهم ومثواهم. فمن شهد ماذكرناه يقينا دامت مراقبته وحَسُنت معاملته، فاتصلت أورادُه وكَثُر من الخير ازدياده، وتحققت مشاهدته لصفاء يقينه ودوام مزيده، فكان ممن ندب الله عز وجل فى قوله تعالى لمثل هذا فليعمل العاملون، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون، وكان ممن وُصف إذ يقول يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون، أى يسارعون الموت ويسابقون الفوْت، ويسارعون الغافلين ويسابقون البطّالين، ولعل بطّالا من الشاطحين، جاهلاً بحكمة الحكيم، يتوهم علينا بظنه أنّا نقول إنه لايعطى إلا شيأ بشئ، ولسنا نقول ذلك إنما نقول إنه يعطى شيئين بلا شئ، فهو المعُطى الأول للشئ الذى هو الظَرف والمكان من العبادة والإيمان، وهو الذى يعطى الشئ الذى هو النعيم والجنان، إلاّ أنه أجرى ذلك بتقديره فى مجارى حِكْمته، كما سبق ذلك فى علمه، ثم أنشأه فى معلومه لأنه حكيم عليم.

المقام الرابع من مراقبة الموقنين

يعلم العبد يقينا أنه تنشر له سنوه فى الآخرة شهورا، وتُبسط شهوره أياما، وتُفترش أيامه ساعات، وتُكشف ساعاته أنفاسا، ثم يسئل عن كل نفس، وينشر له بكل فعلة فعلها وإنْ صغرت ثلاثة دواوين، الأول لِمَ فعلت، وهذا مكان الابتلاء بالأحكام، فإن سَلِمَ له نُشِر له الديوان الثانى وهو كيف فعلت، وهو موضع المطالبة بصحة العلم، فإن صحّ له هذا نشر عليه الديوان الثالث وهو لِمنْ فعلت، وهذا مكان المطالبة فى الإخلاص، فإنْ اعتلّ بكيف أو بِلِمَ أو بلِمَنْ خيف عليه الهَلَكة، إلا أن يتعطف عليه الكريم المنّان بحيث لايحتسب، فيستنقذه ويسمح لَه. وقد قال تعالى وإنْ كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، أى جئنا بها، أى أحضرناها،

وقرئت بالمدّ آتينا بها، بمعنى جازيْنا بها، وقال عز وجل فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. وقيل هذه أحكم آية فى كتاب الله عز وجل، وهى مجملة مبهمة عامة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن شئ لم يُوحَ إليه فيه بشئ يقول ماعندى فيه إلاّ هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة الآية. ولما تعلّم صعصعة جدِ الفرزدق من أسفل القرآن إلى هذه السورة، قال حسبى حسبى، قد عرفت الخير والشر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الرجل فقيها. وقيل الذرّة قشرة الهَبَاء الذى يظهر فى شعاع الشمس مثل رءوس الإبر. وروى عن ابن عباس أنه قال إذا وضعت كفك على التراب ثم رفعتها فكل شئ تعلّق بها من التراب فهو ذرّة. وقد قيل أربع ذرات خردلة. وذكر بعض العلماء أن الذرة جزء من ألف جزء من شعيرة، ففى الأعمال مايزن هذا الشبَح وما يثقل به هذا الخفاء، فلذلك أخبر به الخبير وحذر منه الرؤف. وفى معنى مانكرنا آنفا مَنْ حَسَب أنه يدخل الجنة بعمل فهو مُتَعَنّ، ومن حسب أنه يدخلها بغير عمل فهو مُتَمَنّ، يعنى أنه ينبغى أن يعمل ماعليه ولا ينظر إليه، ثم يتوكل فى ذلك على الله عز وجل ويرجو قبوله بكَرمه، ويخاف ردّه بعدله، ولذلك مدح الله سبحانه وتعالى عباده الصابرين له المتوكلين فى أعمالهم عليه، فأنعم أجرهم فقال نِعْمَ أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون، فالمزيد فى الجنة بفضل الله ورحمته هو تأبيد جزاء المعاملة الموهوبة اليوم، ودوام خلود العامل فى تأبيد جزائه. ألم تسمع قوله تعالى ومن يقترف حسنةً نُزد له فيها حُسنا، مع قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، إلى قوله فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ومثله، ولكلٍ درجات مما عملوا، ونحوه أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، ويدرؤن بالحسنة السيئة، أى وبما يدرؤن بالحسنة الحديثة السيئة القديمة، فلما استعملهم فى الدنيا بعملين، بالصبر وبدء السيئة الماضية بالحسنة المستأنفة، أعطاهم فى الآخرة أجريْن، وهذا من الكلام المحذوف الموجز، فمحذوفه وبما يدرؤن أى وبما يدفعون أيضا، فلما حذفت «بما» أشكل الكلام فأشبهت الواو واو النسق ومؤخره السيئة، والمعنى يدفعون السيئة التى تقدمت منهم بالحسنة التى يعلمونها بعدها، فتكون الحسنة المستقبلة رافعة لعقاب السيئة الفارطة منهم، ومِنْ أحسن الصبر الصبر على المصيبة، ومِنْ أحسن الحسنات، التوبة النصوح بعد ماسلف من الذنوب والفضوح. فكأنهم قد عملوا عملين: صبروا عن الشهوة، ودفعوا بالتوبة ماسلف من السيئة، فأعطاهم أجرين لمّا استعملهم بعملين، إذ لا صبر إلاّ به، ولا توبه لهم إلا منه، كما قال تعالى وماصبرك إلاّ بالله، وقال توبةً من الله وليس من العبد.

ومن أحسن الحسنات مراقبة الرقيب عند خطرات القلوب، ومن أفضل القربات محاسبة النفس للحسيب واستجابتها بطاعة الحبيب، وكذلك حكمته في مزيد أهل النار وبركات بعضهم على بعض فى العتّو والفساد، فقال تعالى الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب، أى زدناهم عذابا فوق عذاب الذين كفروا ولم يصدوا عن سبيل الله، وبمعناه قوله تعالى إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا، فلم يغفر لهم بكفرهم، ولم ينوّر لهم طريق الهداية بظُلمهم. وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الظلم ظلمات يوم القيامة، ومثل ذلك قوله تعالى إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق، فصار عليهم عذابان، عذاب جهنم بما لم يتوبوا، وعذاب الحريق بما فتنوا المؤمنين. ومثله قوله تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم فى الحياة الدنيا وتُزْهق أنفسهم وهم كافرون، أى يريد أن يعذبهم بها فى الدنيا، ويريد أيضا أن تُزْهَق أنفسهم على الكفر ليعذبهم بها فى الآخرة. وهذا نص صريح أن الله تعالى يريد الكفر من الكافر، لأنّ تُزْهَق انتصب بالعطف على يريد الأول، والواو فيه للجمع، وقد قيل إنّ فى هذه الآية تقديما وتأخيراً، فيكون المعنى ولاتعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة، فأراد أن يجمع العذابين عليهم في جهنم، أحدهما الأموال والأولاد، والثانى لإرادته تعالى أن يُخرج نفوسهم على الكفر، فمن لا مال له، ولا ولد له منهم، كان عليه عذاب واحد فى جهنم لأجل قوله بها أى بسببها، وهذا مواصل للخبر الذى جاء أن فقراء الكفار يدخلون النار بعد أغنيائهم بخمسمائة عام، لأجل الفقر الذى كانوا فيه فى الدنيا، كما أن الفقراء من المؤمنين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، لأجل غنى أولئك. وفى الخبر أيضا وتدخل المرضى إلى الجنة قبل الأصحاء بأربعين خريفا.، ويدخل المقتول فى سبيل الله مقبلا قبل المقتول فى سبيل الله مُدبراً بأربعين خريفا، وتدخل المماليك قبل الموالى بأربعين خريفا، ويدخل سليمان بن داود الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفا لمكان ملكه. فالحسرة العظمى والفوْت الأكبر الذى لا دَرك له، وهو تأبيد حرمان ما أُعطَى غيرك من المزيد هناك لفوْت أوقاتك فى الدنيا هـهنا، ثم دَرْك ذلك بأوقاته العامرة ههنا تأبيد مزيد جزائه، ثم وهذا هو التغابن، غَبَن العاملون البطّالين وغَبَن السابقون المخلّفين، وغبن المسارعون المُثبطين، ثم خلود العبد البطّال المغبون فى الدنيا فى تأبيد حرمان مزيد الغابن العامل. ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم ما من ساعة تأتى على ابن آدم لايذكر فيها الله تعالى فيها إلاّ كانت عليه حسرة

وإن دخل الجنة، وفى لفظ آخر وهو أشد إلاّ كانت عليه تُرَة يوم القيامة، أى مطالبة ومؤاخذة، فالحسرة فى الجنة بعد دخولها والظَفَر بنعيمها هو ماذكرناه من حرمان مزيد العاملين فيها، ثم دوام الحرمان مؤبدٌ بها وهو كون العبد فى نقصان درجة غيره، ثم هو مخلّد فى النقصان سرمداً، ومع ذلك فلا يؤبه له ولا يُفطَن به كيلا ينقُص عليه نعيمه. والطَرفَة والنَفَس إذا خلتا من اليقظة، والذكر فيهما بمنزلة الساعة الخالية. إلاّ أنّ النبى صلى الله عليه وسلم نصّ على الساعة ولم يذكر ما دونها، لأن اسم الساعة أقل الزمان المستعمل عند العرب، ليواطئ بقوله قول الله سبحانه وتعالى فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون. ومعلوم أنه إذا جاء الأجل لا يستأخرون نَفَسا ولا طرفة عين، وكذلك لايستقدمون طرفة ولا نَفَسا، فذُكرت الساعة دون ما نقص منها لئلا يخرج الكلام عن حد استعمالهم وعُرفهم، وليستدل بها على ما دونها فى القلة من النفَس والطرفة. وكذلك دلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصه على الساعة على ما دونها لأن حكمته من حكمة مولاه، وكلامه على معانى كلامه، وقد دخلت الساعة فما دونها في الأيام التي قال الله تعالى كلوا واشربوا هنيأ بما أسلفتم فى الأيام الخالية، قيل هى والله أيامكم هذه وستخلُو فاشغلوها بالأعمال الصالحة قبل خلوّها منكم وانقضائها عنكم. وكان الحسن يقول ياابن آدم إنما أنت مراحل، كلما مضى منك يوم أو ليلة قطعتَ مرحلة، فإذا فنيت المراحل بلغت المنزل إلى الجنة أو النار، فالساعات تنقلنا والأيام تطوينا. كما قال بعض الحكماء: مَثَل العبد فى عُمره مَثَل رجل فى سفينة تسير وهو قاعد. كذلك العبد يدنو من الآخرة وهو غافل. ويقال إن العبد تُعرَضُ عليه ساعاته فى اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعةوعشرين خَزْنة، فيرى فى كل خِزانة نعيما ولذةً وعطاءً وجزاء لما كان أودع خزانته من ساعاته فى الدنيا من الحسنات، فيسره ذلك ويغتبط به، فإذا مرّت به فى الدنيا ساعة لم يذكر الله تعالى فيها رآها فى الآخرة خزائن فُرْغا لا عطاء فيها ولا جزاء عليها، فيسوءه ذلك ويتحسر كيف فاته أن لم يدخر فيها شيئاً، فيرى جزاءه مُدّخرا، ثم يلقَى فى نفسه الرضا والسكون، فلو لم يتحسر العبد إلا على فوْت الفضائل والمندوب إليه من الخيرات لكان فى فوت المسابقة والمسارعة حسرات، فكيف بمن فاته أوقاته فى السيآت وفَرَطت منه في الخسارات؟ ولو لم يشتغل العبد فى عمره إلا بالحلال والمباحات لكان ذلك نقصانا من الدرجات له، فكيف بمن شُغِل بالمحظورات؟ فسبحان الله ما أعظم الخطر وأصعب الأمر وأقل المشاهدين لذلك وأغفل البطالين! وقد قال بعض العلماء هَبْ أن المسئ قد غُفر له، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ وقد جاء فى الأثر أن بعض أهل الجنة

بينا هُم فى نعيم إذ سَطَع لهم نور من فوقهم أضاءت منه منازلهم كما تضى الشمس لأهل الدنيا، فنظروا إلى رجال من فوقهم علّيين، يرونهم كما يُرَى الكوكب الدُرّى فى أفق السماء، قد فُضِّلوا عليهم فى الأنوار والنعيم والجمال، كما فُضِّل القمر علي سائر الكواكب، فينظرون إليهم يطيرون على نُجُبٍ تَسْرَح بهم فى الهواء حيث شاؤا، ويتزاورون بعضهم بعضا، يزورون ذا الجلال والإكرام، فينادون هؤلاء يا إخواننا ما أنصفتمونا، كنا نصلى كما تصلون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذى فُضِّلتم به علينا؟ قال فإذا النداء من الله عز وجل أنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تَرْوُون، ويَعرون حين تكسون، ويبكون حين تضحكون، ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فُضِّلوا عليكم اليوم، فذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قُرّة عين جزاءً بما كانوا يعملون. وقد جاء فى الخبر أكثر أهل الجنة البُلّه، وعلّيون لذوى الألباب.

المقام الخامس من مراقبة الموقنين من المقربين

قال الله تعالى مخوفا للكافة حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب أرجعون لعلّى أعمل صالحا فيما تركت، ثم أجابه فقال كلا، وحقق قوله تعالى فقال إنها كلمةٌ هو قائلها، ثم نهى المؤمنين نهياً صريحا عن مثل هذه الحال، وأخبر بنقصان من فعل ذلك فقال يا أيها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، أى لاتشغلكم عن الطاعة له تعالى، ثم قال ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون، أى المغبونون المنقوصون فى الآخرة، لأنهم آثرو المال والولد علىَ الخالق الرازق. ثم أمر بالإنفاق مما رزَقَ وقَرنَه بالإيمان، وأخبر أنه استخلفَنا في مُلكه اختباراً لنا، فقال آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فسمع الغافلون نصف الكلام فآمنوا ولم ينفقوا، وعَقَل العاملون كل الكلام فآمنوا وأنفقوا، ومايعقلها إلا العالمون. وقال سبحانه وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجَل قريب فأصدّق، أى بالمال وأكن من الصالحين، أى بالأعمال. وكان ابن عباس يقول هذه الآية من أشد شئ على أهل التوحيد، لأنه لايتمنى التأخير والرجوع إلى الدنيا أحد له عند الله خير فى الآخرة. ومثل هذا قوله سبحانه أن تقول نفس يا حسرتاً على مافرّطت فى جنْب الله، الحسرة هى أعظم الندامة، وهى اسم لفوت شئ لا تدارُك فيه، فرّطت أى ضيّعت وونّيت، وفرَط منى، أى ذهب وفات، وجنْب الله قيل على مافاتنى من الجزاء منه فى الآخرة، وقيل مافات من النصيب

فى أيام الدنيا، إلى قوله أوتقول حين ترى العذاب لو أن لى كرّة، يعنى إلى الدنيا، يعنى عودة أخرى فأكون من المحسنين. وقوله أن تقول نفس من الكلام المضمر المعطوف، ومضمره من قبل أن تقول أوخشية أن تقول، ومعطوفه هو قوله وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له، أى أقْبلوا إليه وتوبوا واستسلموا وسلّموا قلوبكم ونفوسكم وأموالكم فى طاعته وعبادته، واتّبعوا أحسن ما أنزل من ربكم، أى اتبعوا العزائم من الأمور والفواضل من الأعمال فهو أحسن من الرُخَص والمباحات، مثل الزهد والورع والخوف والإيقان فهذا من أحسن ما أنزل الينا من ربنا، ثم قال تعالى أن تقول نفسٌ ياحسرتاً على مافرّطتُ فى جنْب الله، فلما طال الكلام وأُضْمِر معطوفه وَبعُد عاطفُه للإختصار، أشكُل فهمه. وفى القرآن ماهو أشد اختصارا وأبعد من هذا إضمارا، كقوله تعالى فما يكذبك بعد بالدين، المعنى فما الذى يحملك على التكذيب أيها الإنسان الذى خلقناه فى أحسن تقويم، بعد هذا البيان والبرهان بالدين، بالغائبات والكائنات من أمور الدين والحسنات والجزاء، ثم أحكم ذلك بردّه إليه فقال أليس الله بأحكم الحاكمين، وكذلك قوله ولاتنس نصيبك من الدنيا، المعنى لاتترك أن تعمل فى الدنيا بأيامك هذه فتدرك نصيبك غدا من الآخرة فى الدنيا، فإنك لاتدركه إلاّ فيها، ثم أحكمه بقوله وأحْسِنْ كما أحسنَ الله إليك، أى أحسن إلى نفسك وإلى إخوانك الفقراء كالذى أحسن إليك به من المال والغنى، فبذلك تدرك نصيبك من الدنيا فى الآخرة. ثم أخبر الله سبحانه الكل وحذرّهم فقال حتى إذا جائتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرّطنا فيها، أى ياندامتنا على ماضيّعنا فى الدنيا وفاتنا فى الآخرة، وفى الخبر لايموت أحد إلاّ بحسرة وندامة إن كان مُسيئا كيف لم يحسن، وإن كان محسناً كيف لم يزدد، وذلك أن الله تعالى جعل أهل السلامة والنجاة طبقتين بعضهم أعلى من بعض، وجعل أهل الهَلَكة طبقة واحدة بعضهم أسفل من بعض، فكان صاحب الشمال يتحسر كيف لم يكن من أصحاب اليمين، لقوله تعالى كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين، وصاحب اليمين يتحسر كيف لم يكن من المقربين، والصالح من المقربين يتمنى أن يكون من الشهداء، والشهيد يودّ أنه من الصدّيقين، فهو يوم الحسرة الذى أنذر به أهل الغفلة، فكيف بهم فى ذلك اليوم إذا كانوا اليوم أمواتا ولم يكن له حسنة، فأنّى لهم النذارة والتذكرة، كما قال وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضى الأمر وهم فى غفلة. وقد قال لينذر من كان حيا. كما قال إنما أنت منذر من يخشاها، إنما تنذر من اتّبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب. وقال تعالى فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليوم حديد، يعنى إلى ماقَدِمْتَ، وقيل حديد إلى لسان الميزان تخاف النقصان. وقال تعالي وجاءت

سكرة الموت بالحق، قيل بالسابقة لهم وعليهم، فهو الحق سبقت لهم منا الحسنى حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون وسقط مابونها. وقد قيل إنما يوزن من الأعمال خواتيمها، والخواتم من السوابق، وما بينهما زاهق. والوزن يومئذ الحق ماسبق من العدل والصدق، وتمّت كلمة ربك صدقًا لأوليائه، وعدلاً على أعدائه، ألاَ له الخلق والأمر.

المقام السادس من مشاهدة المقربين

الخيرات هى من ثمرات الإيمان، والصالحات هى مقتضى اليقين، واللعب مقتضى الشك، والسمع والبصر وصفان للمتقين، والعمى والصمَمَ وصفان للشك، وتنتظم هذه المعانى فى قول الله تعالى قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين، فدل أن الإيمان يأمر المؤمنين بالبرّ والتقوى، وقوله تعالى مخبراً عمن أيقن فسمع وأبصر فينال العمل الصالح، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إناّ موقنون، وقوله تعالى فى وصف اللاعبين بل هم فى شك يلعبون، ثم ذكر حالهم لعدم اليقين فقال تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يُبصرون، لأنهم لم يكونوا موقنين، فلما جاءهم اليقين وهو المعاينة، أبصروا وسمعوا، فقالوا وكنا نكذّب بيوم الدين حتى أتانا اليقين، فوصفهم بشدة السمع والبصر حينئذ لما أيقنوا، فقال عز وجل أسمعْ بهم وأبصر يوم يأتوننا، أى ما أسمعهم وأبصرهم اليوم لما جاؤنا فرأوا ما عندنا، وهذا للمبالغة فى الوصف كما تقول أكرمْ وأعظِم به، أى ما أكرمه وأعظمه، فكذلك إذا أتيته اليوم وأنت موقن سمعت مالم تسمع، وأبصرت مالم تر قبل ذلك، ولكن شغلتك الأزواج التى خلَق، والأشكال والأشباه التى أظهر، فتألهّتَ إليها، ووقفت معها، ولو فررت منها إلى الله تعالى لفررت إلى خير مفر، ولَأواك عنده فى أحسن مقر، وقد أمرك بالفرار منها إليه لو قَبلت، ونهاك عن التألّه إليها لو سمعت، وبيّن لك النذارة لو فهمت، وجعل ماخلق من الأزواج تَذْكرةً لو عرفتَ، ورادةً إليه لو أنك للذكْر اتبّعت، ومشوّقةً إليه لو كنت لقُربه أحببت. أمَا سمعته يقول ومِنْ كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون، أى مثلين وشكلين لكى تذكرون الله بها وتشتاقون إليه منها، ثم قال ففروا إلى الله أى عنها بالزهد، ثم قال ولا تجعلوا مع الله إلها آخر، أى لاتألهّوا معه إلها ولاتشركوا بتألهكم إليه إياها، فهذا فهم المقربين عن سمعهم بشهادة أبصار قلوبهم، فعندها كان استجابتهم له، كما قال إنما يستجيب الذين يسمعون، وقال ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله. ولكن كيف يسمع من يُنَادى من مكان بعيد، وكيف يُبصر من

القُفْل على قلبه عتيد، وكيف يستجيب مَنْ لايسمع، وكيف يشهد مَنْ لا يبصر؟ وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم حبُّك للشئ يعمى ويُصم، فالهوى يُعمى عن الحق، والشهوة تُصم عن النصح والصدق. وكذلك لو أحببته لنظرت إليه، ولو نظرت إليه لَعَمِيت عمن سواه، ولو أقبلت عليه لاستمعت إليه، ولو سمعت لصَمَمْت عن غيره، ولو أحبك لكان سمعَك وبصَرَك وقلبَك ويدَك وناصرَك ومؤيدك، تدعوه فيجيبك، وتسأله فيعطيك، وتنصح له فينصح لك. كذلك جاء الخبر بذلك فشغلك به عنك وفرّغك له منك، فكيف تسمع عنه وتنظر إليه، وتتقلب عنده وتتحرك به، لا بنفسك وهواك، ولا بشهوتك ودنياك، فهذا وصف حبيب عن تَقَلُّب حبيب، وخبر محبوب عن تثبيت محبوب، فإذا تيقّن العبد يقين عين لا يقين ظن، وسمع بما ذكرناه من سرعة فوت الوقت وفوت دركه، شغله الغم والحزن على ما فات مثل ما سلف مما ندم عليه فى مستقبل الأوقات، فلم يضم إلى الفوْت الأوّل فوتا ثانياً لحزنه وندمه عليه، فكيف يُرْدِفه فى الحال بما يشبه ما ندم عليه من سوء الأعمال، وما لا يحمد عاقبته ولا يغتبط به فى المآل، فمثل العبد المتيقظ فى آخر غفلته مثل عبدٍ كان عليه عمل لابد أن يعمله فى يومه ذلك، إلاّ أنه لَهَى عنه لغفلةٍ مُلهية أو نَوْمةٍ مُنْسية، فلم يفق لعمله ذلك الذى لابد منه إلاّ بعد العصر، فلا يسأل عن حرصه وانكماشه وتشهيره وبداره فى بقية نهاره، ليدرك به ما فاته من أوّل النهار، فهو يودّ أن وقته ذلك إلى الليل مُدّ له أضعافه، أو رُدّ إلى أوّل النهار ليدرك ما فاته، فهذا حال التائب المتيقظ من رقدته، وهذا لا يستبين له إلاّ بعد الموت، لمعاينةِ تَقَضّى الأوقات، ولليقين بعدم دَرْكِ ما فات، فهناك وقَعَت الندامة الكبرى، وحينئذ حلّت الحسرة العظمى، فالحزم عند العقلاء الموقنين هو الانكماش والتشمير فيما بقى من العمر القصير، لأن الاشتغال بما فات فى وقت دَرْك مثله فى المستقبل، هو إضاعة ثانية لما هو آت، فَحِرْصُ هذا المتيقظ واجتهاده أن يكون له فى كل وقت وقت، ومن كل ساعة نصيب، فأودع فى كل خزانة من ساعاته التى هى خزائن أعماله شيأ فشيأ، لئلا يرى خزائنه فارغة غدا فيتحسر على فراغة منها، وهذا طريق أهل الرجاء الذين تمنوْا زيادة الأعمال، ورغبوا فى طول البقاء بحُسن خدمة المولى، وهو مقام التائب المستقيم ليتدارك بحديث الأوقات ما فَرّط منه من الغفلة فى القديم، فهذا هو الحزم والاحتياط عند العلماء، فإن يكن الأمر صعبا شديدا كما يُحدّث عنه كان قد سَلِمَ بحسن توفيق الله تعالى من صعوبته، وإن كان الأمر سهلا قريبا كما يرجوه، كانت الأعمال درجات والفضائل مقامات.

المقام السابع من مشاهدة الموقنين

إعلم أن ما ذكرناه من تدارك الأوقات خوف فوتها ليس هو بتمنى مكان دون مكان، ولا هو بانتظارِ وقتٍ ثان هو فى الأصل فِكْرُ الوقت الذى هو فيه، ولا توقع حال سوى الحال الذى هو يليه، إنما هو صومُ يومٍ أو قيامُ ليلةٍ، أو ذكرٌ فى ساعةٍ، أو جمعُ هَمّ عن شتات قلب، أو قطعٌ لأثرٍ فى خطر، ويكون ذلك أيضا غَضٌ طرفه، وصونَ سمعه، وكفّ يده، وحَبسَ قدمه، وصمتاً عن كلمة دنيّة، وترك لقمةً شهيّة، ونقصاناً من قوت، وزيادة جوع للمُقيت، وأمراً بكلمة رشيدة، ونهياً عن فعلةدنيّة، وعقدَ نيّة حميدةوحلّ نية نميمة، وتجديدَ توْبة، وإعمالَ قلبٍ فى فكرة، وإخراجَ سوء ظنٍ، واعتقادَ حُسن ظن، واستقامةً وصحّة عزمٍ فى قصد، وتسبباً إلى ما يقوّى العزم، ومعاونةً على بر وتقوى. وهذا كله يكون فى الوقت، ويحدثه فى الحال، لا يسوّف به، ولا ينتظر منه، ولا يتوقعه فى وقت ثان، ولا يؤخر إلى زمان دون وقته، ولا يتربص به فى مكان دون مكان، فهذا هو التدارك للأوقات فى وقتك الذى أنت فيه، خشية فوْت الوقت، فيحصل على التسويف والتمنى، أو فى الانتظار والتراخى، فهذه من جنود إبليس يقطع بها المريدين، وهو مقام المغترّين وأحوال البطّالين، الذين وُكِلوا إلى أنفسهم وتُرِكوا مع هواهم، ولم يتداركوا فى أحوالهم، ولم يقدموا لغَدِهم، ونسوا اللّه فنسيهم. والوقت إذا انقضى فُقِدَ ولم يوجد إلى يوم القضاء، والساعة إذا مرّت طُوِّيت فلم تُنشَرَ إلى يوم النشور، وإنما يُنْشَرَ مثلُها ويُخلَق شبهُها، فإذ أيقن العبد عَلِمَ أن عمرَه كله يوم، وأن يوْمه كله ساعه، وأنّ ساعته كلها وقته الآن، وأن وقته حاله، وأن حاله قلبه، فأخذ من حاله لقلبه ما يقرّبه إلى مقلبه بنهاية عمله، فعمل أفضل ما دلّ علمُه عليه، وما ندبه مولاه إليه، ومما يجب أن يفجأه الموت عليه، فيكون ذلك خاتمة عمله الذى يلقى مولاه به، ثم أخذ من وقته لحاله ما يُصلح حاله لقلبه، ويقوّى قلبه ويُخلِصُه لربه، وأخذ من ساعته لوقته ما يُزَيّن به حاله عند ربه، وأخذ من يومه لساعته صلاحه فيها وحاجته إليها، وأخذ من شهره ليومه فكان شهره يومه، وكان يومه ساعته، فشغله وقته عن ساعته، وشغله حاله عن وقته، فكان على هذا مُراعياً لوقته محافظاً على حاله، قائما على نفسه، جامعا لهمّه، محصيًا لأنفاسه، مراقبا لرقيبه، مجالسا لحبيبه، لا يخرج عنه نفَسٌ فى أدنى وقت إلاّ فى ذكرٍ لمذكور، أو شُكرٍ على نعمةٍ لمُنعم، أو صبرٍ فى محبةٍ عتيدة، أو رضاً عند شدةٍ شديدة، ويكون فى ذلك كله ناظراً إلى الرقيب، مُصغياً إلى القريب، سائحا إلى الحبيب، لا ينظر إلاّ إليه، ولا يعكف إلاّ عليه، وقد جعل العمر يوما، واليوم ساعة، والساعة وقتا، والوقت حالا، والحال نَفَسا، والنفس مراقبة، والمراقبة مواجهة، فتوجه فى وُجهته فلم ينثن، وساح فى قُربه فلم يَنِ، فكان من الإيمان على مزيد، ومن

اليقين فى تجديد، وأعطى من الحياة الطيبة بغير حساب، وكُشِفَ له عن قلبه الحجاب، فكانت المعرفة مقامه، وتَصرّت عليها يامه، فكان وقته وقتا واحداً لواحد، وكان قلبه واحداً لواحد وهَمّه منفرد المنفرد. وهذا حال الأبدال الذين هم من الرُسل أمثال، وعددهم فى الموقنين قليل، ونصيبهم من اليقين وافر جليل، وهم المقربون والصديّقون. ومن علم ماذكرناه على يقين فهو من الصالحين، ومن آمن به ولم يَشكّ فيه لأهله إيمانَ تصديق فهو من الموقنين، ومن شهد منه شهادة يكون له منها مطالعات وزيادة فهو من الشاهدين، وجميع ماذكرناه من مراقبة المؤمنين، وشهادة المقربّين، يدُرَكُ بأحد مقامين، مَنْ أقيم فى أحدهما جَمَع له ذلك استقامةً فى توبة وعَمَلٍ بعلم، فمن كان مقامه التوبة، وحاله الاستقامة، رُفِعَ إلى شهادة المحبين، ومن كان مقامه العلم وحاله العمل بعلمه تحقق بنعت الخائفين، وهما حالا العارف الدائم الوجد بقرب القريب، القائم بالشهادة بحضور الشهيد، فأنفاسه وطَرْفاته صالحات، وتصرفاته وآثاره حسنات، وأفكاره وأذكاره مشاهدات، فهو حاضرٌ فى تصريفه، متيقظٌ فى تقلبه، وبهذا وصِفَ العارف والدائم الوجد.

وحُدِّثت عن بعض هذه الطائفة أنه دخل على بعض المنقطعين إلى الله تعالى من أهل المراقبة، فقال له أحصيتُ من نعم الله تعالى علىّ فى نوع واحد أربعةً وعشرين ألف نعمة، قلت وكيف ذلك، قال حَسَبْتُ أنفاسى فى اليوم والليلة، فوجدتها أربعة وعشرين ألف نَفَس. ويقال أنّ الطَرفات ضعفُ ذلك، لأن كل نَفَس طرفتان. وسمعت أن الله عز وجل أوحى إلى بعض الأنبياء كيف تؤدّى شكر نعمتى عليك ولى فى كل شعرة نعمتان، أن لينّتُ أصلَها، وأنْ طَمَنْتُ رأسها. وقال بعض العلماء رُوِى ذلك أيضا عن علىّ عليه السلام، ليس شئ أعز من الكبريت الأحمر إلاّ ما بَقِى من عُمر العبد، قال ولا يَعرف مقدار ما بقى من عُمره إلا نبىّ أو صدّيق. وقال بعضهم لا يَعرف قدر مابقى من عُمره فى العزة إلاّ مَنْ عرف ينبوع الكبريت الأحمر، فإنه يقال إنه عيون تنبع فى الظلمات لايعرفها إلا الأبدال، والكبريت الأحمر هو كيمياء الذهب الذى يُعمل منه الذهب الخالص، وإذا أُلقى منه اليسير على كيمياء الذهب المستعمل ثَبَت على حاله، وإلاّ استحال وتغيّر بعد سنين. ولا أعلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الكبريت الأحمر إلا فى حديث علىٍّ عليه السلام الذى وصف فيه الأبدال، فذكر عدّتهم ونَعْتَهم، وقال فى آخر وصفهم هم فى أمتى أعز من الكبريت الأحمر ولا ذِكر للذهب الإبريز إلاّ فى حديث الابتلاء، أن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يُجرّب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، ومنهم من يخرج أسود، ومنهم من يخرج بين ذلك.